الإصدار الثامن – العدد الخامس والثمانون
تاريخ الإصدار: 2 – تشرين الثاني – 2025م

www.ajsp.net

ISSN: 2663-5798 || Arab Journal for Scientific Publishing

# "الإبداع الشعري العلائي وتكاملية المعارف"

إعداد الباحثة:

**الأستاذة نجية نشيط**

كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس

جامعة سيدي محمد بن عبدالله ظهر المهراز فاس

https://doi.org/10.36571/ajsp8523

**الملخص:**

تأخذ بعض المصطلحات موقعا أثيريا في الأبحاث العلمية والكتابات الفكرية والثقافية، ويتم تداولها كثيرا بمفاهيم ودلالات مختلفة دون الإجماع على تحديد دلالة خاصة بها، فقد ألفنا أن نجد بعض المصطلحات تستخدم بدلالات ليس مختلفة فحسب بل ربما متناقضة، ولعل هذا هو الحال مع ما يطلق عليه "التكامل المعرفي"، ويعني "التكامل المعرفي" في الغالب أن شخصا ما موسوعي في معرفته وثقافته، لأنه يلم بكثير من العلوم، ولو كان إلمامه من باب الثقافة العامة وليس المعرفة الشخصية.

يعني التكامل المعرفي تلك الصورة العلمية المتكاملة للوجود عبر تفعيل الرؤية الإسلامية في كل المجالات المعرفية شرعية كانت أو طبيعية أو اجتماعية أو إنسانية، تماما، نفس المعنى الذي يطلق على "التكامل المعرفي" ويقصد به الشخص الموسوعي الذي له إلمام بكثير من العلوم والمعارف يهدف إلى بناء مشروع حضاري يعود بالنفع على المجتمع وعلى البشرية عموما.

ولا شك أن ظاهرة الإبداع في أكثر من علم واحد، كانت صفة مميزة لكثير من علماء المسلمين، وربما كانت ظاهرة التخصص في علم واحد والتفرغ له، ظاهرة حديثة في التاريخ الإنساني، وذلك بسبب التوسع في المعلومات والتحولات الذي يشهدها العالم، إلى أن نشأ في الفكر مع مرور الزمن أن الكثير من العلوم تدرس لذاتها بعيدا عن قطف ثمارها.

إن الوعي بشمولية المعارف والعلوم وتصويب الفكر نحو الماضي وفهم الحاضر والاستفادة مما يمليه العصر وما يعرضه الفكر البشري من مستجدات وتحولات على مستوى التواصل، هو السبيل إلى البحث الجاد وتمكين البحث والابتكار وبالتالي تحقيق تقدم في كافة المجالات.

إن إلقاء الضوء على موضوع "التكامل المعرفي" والوعي بأهميته، يحفز على هدم الفجوة بين ماضي وحاضر ومستقبل النص كيفما كان، وأن مشروع الأ مة مشروع واحد يرتبط حاضرها بماضيها ويستشرف مستقبلها. وهي إشارة واضحة إلى ضرورة إعادة تشكيل عقل المسلم عموما لإحياء فكرة الاشتغال بالكل بدل الجزء، كما أنه دعوة إلى العيش في العصر والاستفادة من إبدالاته المعرفية الجديدة، ولن يتحقق هذا إلا بالإرادة القوية والرغبة في تغيير الفكر ونفي الخطية في تحليل النصوص وإعادة تشكيل رؤية العالم وفق إبدالات العصر وتحولاته السريعة التي شملت كل شيء بما فيها النص أيا كان نوعه.

ربما كانت ظاهرة التخصص في علم واحد والتفرغ له، ظاهرة حديثة في التاريخ الإنساني، وذلك بسبب التوسع الكبير الذي طرأ على المعرفة البشرية منذ ظهورها، حتى نشأ في الفكر مع مرور الزمن أن الكثير من العلوم تدرس لذاتها بعيدا عن قطف ثمارها، وهذا ما يلاحظ في عصرنا وينتشر، حيث نجد أستاذا في الجامعة يدرس تخصصا دون أن تكون له علاقة بما يقرب منه من تخصصات، فالاستفادة من العلوم والمعارف الجديدة إضافة إلى دراسة جذور القضية في التاريخ انطلاقا من المنجزات الحديثة أمر ضروري في إعادة تشكيل الفكر وتغييره.

ولا شك أن موضوعات هذه القضية كثيرة ومتشعبة، تحتاج لإجراء دراسات تفصيلية متأنية وفق نظريات وتصورات علمية تحليلية سردية مترابطة ومتكاملة لمقاربة أهمية هذا الموضوع الشاسع عند بناء أي مشروع يعود بالنفع على البشرية حاضرا ومستقبلا.

إن العلم قرين الإنسان منذ خلقه الله سبحانه وتعالى ونفخ فيه من روحه، وأنه سبحانه قد امتن على العباد بنعمة الخلق والإيجاد، كما امتن على آدم عليه السلام بتعظيم شأنه وشرفه على الملائكة بما اختصه من علم وأسماء كل شيء دونهم. يقول الله سبحانه وتعالى: "وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك "البقرة 30-33.

يولد الإنسان في هذه الأرض لا علم له بشيء من هذا الكون على الإطلاق، فأول طبع يطبع في وعيه وفي لا وعيه هو دعوته إلى مائدة العلم، وحثه على اكتساب المعرفة والاستفادة من تطبيقاتها وتقنياتها لتسهيل سبل طريق الرسالة النفعية والخلافة التي جاء من أجلها فوق الأرض.

طبيعي أن تكثر المعلومات وتتشعب الموضوعات، وطبيعي أن تتبلور من هذه المعارف وتطبيقاتها مقومات الحضارات التي شرع الإنسان تشييدها على مراحل متعاقبة تتناسب ومستوى الاستيعاب المعرفي والتقني للعلوم في المرحلة التي تبلغها البشرية من تطور. نجد في هذ السياق كثيرا من التنويه المستمر عبر الأجيال يجري بكثير من المفكرين في مجالات عديدة، تركوا بصماتهم النفعية للبشرية. كابن سينا وابن رشد والخوارزمي وابن الهيثم وغيرهم في جميع مجالات العلوم والمعارف المختلفة المصادر والتخصصات.

تطرح مسألة تكاملية المعارف في ترابطها النصي مع بعضها البعض، موضوعا من أهم القضايا في الدراسات الأدبية والنقدية الحديثة، وذلك لاعتبارها السمة الجوهرية في النص الإبداعي الترابطي.

وبمختلف الهواجس التي يحملها البعد التكاملي في كيفية بناء النص وحيثيات تشكيله وفق ثقافة المبدع المترامية الأطراف، فقد رام أيضا إلى تقريب علائق النص وتفعيل تلقي القارئ رغبة في تحقيق تواصل فعال، فكما تقول العرب، معرفة تجربتهم نوع من معرفة معارفهم، وكما لا نصل إلى فناء الدار قبل المرور بعتباته، فكذلك لا نفهم النص قبل الاطلاع على علوم ومعارف المبدعين في المجال.

فلتبسيط عملية الإبداع، نجد المبدعين يستدرجون القارئ إلى التعاقدات الضمنية رغبة في تحقيق التواصل الفعال والتفاعل الإبداعي لفهم حيثيات اشتغال النص فهما جيدا. وبالتالي إعادة قراءة النص قراءة ترابطية تفاعلية إنتاجا وتلقيا، وهذا من شأنه أن يساعد على القراءة الجيدة للنصوص على حد تعبير جيرار جونيت، وهو الدور الطلائعي الذي أصبح يقوم به الوعي بقضية "التكامل المعرفي" الدور المنوط ليس بالمبدع فحسب ولكن بالمتلقي أيضا إضافة إلى النص الذي يتشكل وفقا لقدرة المبدع الكتابية ومقصديته وكيفية بناء النص وخطاطته.

لقد كان الاعتناء بقصدية "التكامل المعرفي"" وما تعنيه من موسوعية في التخصص، والترابطات النصية التي تشتغل بها أمرا جديرا بالدراسة والبحث، لقد استطاع الوعي بهذه المسألة، أن يرصد بعين طرق اشتغال النص، وملابساته ومنعرجاته وأثره في سائر الخطابات والعلوم والمعارف، وبالعين الأخرى تحقيق وظيفة التلاقح الثقافي والمعرفي لفعل التلقي ومقاربته النصية الفعالة، وموضوع التكامل المعرفي بهذه القصدية وبعرضه في طرحه الماثل الذي يربط بين المعارف يجسد القوة المركزية الفاعلة في العملية الإبداعية للنص الثقافي محوره المركزي اللغة العربية. وهو إعادة الاعتبار لإشراقة الحضارة العربية الإسلامية، والذي لا يمكن أن تحكم قبضتها مرة أخرى عليه إلا عبر الترابط النصي والتفاعل الإبداعي بين عمق التجربتين الثقافيتين القديمة والحديثة.

إن الإيمان العميق بأن رهان الثقافة العربية هو تجديد وعي مثقفيها بأهمية "التكامل المعرفي" وبالتالي الترابط المعرفي، وضرورة إعادة قراءة التراث العربي على ضوء ما استجد من معارف وإبدالات وتحولات ومقاربات نصية ووثائق علمية جديدة ونص مترابط وترابط نصي، هو طريق لبناء مشروع أمة، وهي تتجهز بالمنجزات الحديثة في عودة إلى تاريخها المجيد بوجود حضاري شامخ ضارب في أعماق التاريخ يغري اكتشاف عبقه، وبالتالي إشراقته. ولن يتحقق هذا إلا بالوعي بإبدالات العصر الحديث وما استجد فيه من مقاربات نصية تعمل على فتح مغالقه باستيعاب تراث مجيد يغمر القارئ والمثقف الجوال ثقة، ليستيقن أن حضارته حضارة قائدة في أصلها للأمم والشعوب، وأن الحضارة الغربية الحالية ما وصلت إلى ما هي عليه لولا استفادتها من الحضارة العربية الإسلامية، والعصر التكنولوجي رهانها للتحليق مرة أخرى في سماء القيادة الثقافية محورها المركزي اللغة العربية.

إن خدمة التراث العربي، تنبثق من وعي تام بإعادة قراءته قراءة علمية بإبدالات وعلوم ومعارف جديدة، قراءة تبث فيها الروح بصورها وحركاتها وألوانها. وفي اختلافهما يتم تكامل العلوم وترابط المعارف وتتمة الصورة المشرقة للحضارة وللمجتمعات.

من له شغف بالوقوف على "النص المترابط" وبالتالي الترابط النصي وكيف تتم العلاقة الجدلية بينهما لخلق التفاعل بين النصوص قديمها وحديثها لتحقيق هذا الإبداع المتكامل في العلوم والمعارف والتجارب، وجميع أزمنتها وأمكنتها وماضيها وحاضرها ومستقبلها، يدرك أن المقاصد منها هي تقريبا نفس مقاصد التكامل المعرفي والإبداع التفاعلي الذي عرفه العلماء المسلمون بمفهومها الحديث رغم النقلة النوعية في وسائل الإعلام والتواصل التي يعرفها العصر الحديث مع الحاسوب.

إن المنجزات الحديثة التي عملت على تشكيل النص وفق إبدالات العصر ودخول الحاسوب، جذورها متوغلة في أعماق التاريخ. ذلك: " لأني أومن بأن المنجزات الحديثة لم تأت من فراغ، وأن الانطلاق منها يفيدنا كثيرا في إعادة النظر في أشيائنا القديمة أملا في تجديد النظر إليها، وترهين أو تحديث التعامل بها ومعها في ضوء ما يتحقق اليوم وغدا"[1]. بمعنى ان النتائج العلمية التي أصبحت مسألة "التكامل المعرفي" تضطلع بها في العقود الأخيرة، عملية فكرية متجذرة لدى العلماء المسلمين في جميع التخصصات والمجالات الطبيعية والإنسانية، و الحديث عنها لا يلغي تجذرها في التراث العربي القديم، السرد الأدبي، الثقافة العربية بصفة خاصة، فالتداخل البحثي في المصطلحات بين النقد الأدبي الحديث والنقد الأدبي القديم والسرد والسردية بمفهومها العلمي الحديث لرائدها الدكتور سعيد يقطين، واهتمام المفكرين والعلماء المسلمين بجميع مشاربهم بهذه القضايا العلمية والمعرفية التي كانوا يعتبرونها مسألة في البحث العلمي من البديهيات، وإلا كانوا وقفوا عندها وأولوها عناية وألفوا فيها مؤلفات، لهذا وجدناهم كثيري التخصصات وكثيري العلوم والمعارف إلى درجة أن أبا العلاء المعري الشاعر والفيلسوف والناقد والمفكر مثلا يكتب الكتاب بلغة عربية ويعيده بلغة عربية أخرى سماها الفصول والغايات تفننا وإظهارا لهذه القدرة في التبحر في علوم اللغة العربية محور مركز كل العلوم والمعارف. وفي سياق من يستفيد العلاقة التواصلية التفاعلية مع القدماء. يقول الدكتور عبدالفتاح كيليطو: " عندما يأخذ الباحث في دراسة القدماء، يتساءل هل هو الذي يقرأهم أم هم الذين يقرؤونه. ذلك أنه سرعان ما يكتشف أن ما يستهويه في القصص القديمة هو مخالفتها لما تعود عليه فينظر إلى الأدب الحديث من خلال الأدب القديم ويبصر نفسه بعيون أخرى، عيون أناس ماتوا منذ قرون خلت، فيدرك أن الأساليب التي ألفها أساليب نسبية، مرتبطة بزمان ومكان، وأنها ليست طبيعية، شأنها شأن الأساليب القديمة، عندئذ يرى نفسه شخصية قصة بدأت ذات يوم ولابد أن تنتهي في يوم من الأيام".[2]

[1] - من النص المترابط، مدخل إلى جماليات الإبداع التفاعلي، المركز الثقافي العربي، الدارالبيضاء-المغرب، الطبعة الأولى 2005. ص: 154.
[2] - الحكاية والتأويل، دراسات في السرد العربي، دار توبقال للنشر، الطبعة الثانية 1999.

أبو العلاء المعري أعرف من أن يعرف[3] لكن ما عرف عنه ويعرف عنه حتى عهد قريب فهو إما تسويق أكاديمي مجحف في حق عقيدة وأدبه ونقده وشعره وفلسفته، وإما فهم متسرع لاستراتيجية أعماله الشعرية والنقدية، وإما أحكام نقدية هي أقرب للعواطف منها إلى العلم والمنطق والعمق في الوعي، وهي من بين الأسباب العديدة التي حالت دون معرفة الشخصية العلائية الحقيقية الغزيرة العلوم والمتعددة المعارف والإنتاجات الفكرية. وهي في مجموعها لم تكن لترقى إلى الشهرة التي تشهد بها المصادر[4] التي أرخت له.

لقد افتتن أبو العلاء المعري بالعلم والمعرفة أيما افتتان، وكانت عزلته في مسكنه، ودماغه الذي حوى من العلوم والمعارف ما قد نشبهه الآن بتكنولوجيا عصره، وما اتخاذه قرار العزلة في مسكنه والتفرغ للعلم والمعرفة إلا تجسيد لهذا النهم في العلم والمعرفة. كما تسجل المصادر والمراجع أنه كان أعجوبة زمانه في العلم والتعلم إلى درجة أنه سبق القرن العشرين وكان يكتب بطريقة برايل كما يقول المرحوم محمد الدناي في كتابه، حتى لكن الخزانات العربية في كفة ومؤلفاته الضائع منها أكثر من الموجود في كفة أخرى، وقد كان كثير الاهتمام بالقارئ رأفة به من أن يكون على مستوى معرفي سطحي فيحكم على العمل بعيدا عن مقصديته.

وهذا الحضور القوي للإبداع الشعري التفاعلي لأبي العلاء المعري، نقف عنده من خلال ديوانه الذي يؤرخ لشعريته التي بلغت عنان السماء ولشاعريته التي ضاهى بها كبار الشعراء قديما وحديثا، والذي ميزه عن غيره من الدواوين يقول: "الشعر كلام موزون تقبله الغريزة على شرائط، إن زاد أو نقص أبانه الحس"[5] ويجسد هذه الابعاد المعرفية المتكاملة في شعريه وهو يحكي قصته البطولية مع الشعر الذي كان يعتبر من أشرف مراتب البليغ: "أما بعد، فإن الشعراء كأفراس تتابعن (في مدى)، ما قصر منها سبق، وما وقف ليم ولحق. وقد كنت في ربان الحداثة وجن النشاط مائلا في صغو القريض، أعتده بعض مآثر الأديب، ومن أشرف مراتب البليغ، ثم رفضته رفض السقب غرسه، والرأل تريكته رغبة عن أدب معظم جيده كذب، ورديئه ينقص ويجذب (...) ولم أطرق مسامع الرؤساء بالنشيد، ولا مدحت طالبا للثواب، وإنما كان ذلك على معنى الرياضة وامتحان السوس"[6]

تحاول الدراسة الوقوف عند أهم الروابط النصية والمعينات التي اعتبرها أبو العلاء المعري الشاعر مفاتيح النص الإبداعي الشعري لديه. والتي تيسر عملية فهم استراتيجية الإبداع الشعري لدى القارئ إنجازا وتصورا.

أبو العلاء المعري أول شاعر يخرج على القارئ بدواوين عديدة كل ديوان باسمه الخاص به.

ويبدو أن توسيع مفهوم الديوان الشعري لدى ابي العلاء من معناه الأحادي الضيق إلى معناه الواسع قد أضفى نوعا من الضبابية على الفهم فقد: "(...) كان ديوان الشاعر يعني بالضرورة كل ما ينظمه طيلة حياته، لكن توسيع أبي العلاء لهذا المفهوم جعل التحديد يكتسي أهمية نقدية كبيرة لم تكن له من قبل، فالديوان لدى أبي العلاء ليس مراكمة للموزون من الكلام، ولكنه ترجمة لرؤى شعرية أو فكرية

[3] - شرح ديوان أبي الطيب المتنبي؛ وضعه عبدالرحمن البرقوقي؛ دار الكتاب العربي؛ بيروت ؛ لبنان. 1400ه-1980م. ج:126/1.
ولد أبو العلاء أحمد بن عبدالله بن سليمان المعري بمعرة النعمان سنة 363ه وتوفي بها سنة 499ه.

[4] - انظر سبيل المثال: تعريف القدماء بأبي العلاء؛ جمع مصطفى السقا وزملاؤه؛ تحت إشراف الدكتور طه حسين؛ الهيئة المصرية للكتاب؛ الطبعة الثالثة؛ القاهرة 1406ه-1986م.

[5]- رسالة الغفران ومعها نص محقق من رسالة ابن القارح لأبي العلاء المعري؛ تحقيق د عائشة عبدالرحمن (بنت الشاطىء)؛ دار المعارف الطبعة 8 القاهرة (د ت)؛ ص: 251.

[6] - أبو العلاء المعري، سقط الوند، شروح سقط الزند، مصدر سابق، مقدمة التبريزي، 10/1.

متحولة، ولهذا كان منظومه دواوين متعددة لا ديوانا واحدا (...) أصبح الديوان لدى الشيخ رسما لحدود التحول داخل خريطة المتن الشعري الواسع، وتمييزا لدلالة الأشعار النقدية أو الفكرية يجمعها في تصانيف يشتمل كل واحد منها بنفسه عما سواه"[7].

**لاسم الديوان** دلالة تفاعلية كبيرة تربط بين مقصدية االشاعر في رسم حد الشعر لديه ، وبين النظم الذي تمثله باقي دواوينه الأخرى مثل اللزوم والاستغفار وجامع الأوزان والدرعيات وغيرها من الدواوين. وعن سبب اختيار أبي العلاء لهذا الاسم. يقول تلميذه التبريزي عند الإشارة إلى هذا عمق البعد الترابطي بين عنوان الديوان ومقصدية المبدع من التسمية دون غيرها: "قد لقب هذا الديوان ب"سقط الزند"؛ لأن السقط أول ما يخرج من النار من الزند، وهذا أول شعره وما سمح به خاطره فشبهه به"[8].

إن تسمية الديوان باسم "سقط الزند" رابط من أهم الروابط التي تحمل دلالات ومعان عميقة، رمت بها نار طبع الشاعر المتقد أيام الصبا والشباب، أما الدواوين العلائية الأخرى، فقد صدرت عن نشاط فكري متحول من سحر الشعر وعذوبته إلى صدق الفكر في مراحل عمرية لاحقة، أسفرت عن دواوين أخرى يحمل كل منها اسما خاصا به، وكل ديوان يصور زاوية من زوايا كنه النظرية النقدية لدى أبي العلاء.

يعتبر اسم الديوان من أهم الروابط النصية التي يشي بمقصدية الشاعر، وهو لفت انتباه القارئ إلى وضع الحدود الفاصلة بين ديوان "سقط الزند" الذي نظمة في عهد الصبا والشباب، وباقي الدواوين الأخرى التي قيلت بعد اتخاذه قرار العزلة والتفرغ للعلوم المترامية الأطراف والمتكاملة المعارف وذلك من منظور فكري مختلف، تماما مثل الفرق بين عهد الصبا والشباب والكهولة والشيخوخة، فالدور الوظيفي للرابط الرئيسي الذي يجسده العنوان هو خدمة التحولات والمسارات الفكرية التي اختلفت بين المرحلتين العمريتين من حياة الشاعر، والتي تنحو اتجاه أفقين زمنيين مختلفين هما: أفق التجربة الشعرية المتجه نحو الماضي مرحلة الصبا والشباب، وهي الفترة العمرية التي اعتد فيها أبو العلاء بالشعر، واعتبره من بعض مآثر الأديب، وأفق التجربة الفكرية المختلفة عن الأولى والمتجه نحو المستقبل، وهي الفترة العمرية التي تحول فيها فكره من الاعتداد بالشعر زمن الحداثة (أجود الشعر أكذبه)، والعدول عنه في زمن ما بعد الصبا (الصدق في العلوم والمعارف).

يقول الدكتور محمد الدناي رحمه الله: "أبو العلاء بدأ شاعرا في سقط الزند وانتهى مفكرا ناقدا في باقي مؤلفاته الأخرى. إن "الدرعيات" التي شرحت ونشرت مع أول "ديوانه سقط الزند" فعدت منه، كانت آخر ديوان شعري نظمه في رحلة الإنجاز الطويلة، و أن ديوان سقط الزند الذي اعتقد الدارسون أنه ظل ينظمه بعد أن كان قد بدأ نظم اللزوم ينتسب حسب هذا المنطق إلى مرحلة تفرض أن يكون قد انتهى من قول آخر سقطياته عند إعلانه تطليق الشعر وبدء حياة العزلة، كما يكتشف عن أن ديوان اللزوم الذي اعتقد بعض الدارسين أنه بدأ في نظمه قبل اعتزاله قد نظم في مرحلة متأخرة عندما أجبرته قسوة حياة العزلة والحنين إلى الشعر الذي تاب منه على مراجعة الموزون متحايلا على قيد التوبة التي قيد بها نفسه بمسوغات فكرية أخلاقية فرضت عليه أن يجعل هذا الديوان صورة نظمية مناقضة لشعرية السقط"[9].

---

[7] – محمد الدناي، نظرية الشعر لدى أبي العلاء المعري بين التصور والإنجاز، مرجع سابق، القسم الثاني ص: 96–98.

[8] – أبو العلاء المعري، سقط الوند، شروح سقط الزند، مصدر سابق، مقدمة التبريزي، 3/1.

[9] - نظرية الشعر لدى أبي العلاء المعري بين التصور والإنجاز؛ الدكتور محمد الدناي؛ أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في اللغة العربية وآدابها 1420ه-2000م؛ جامعة سيدي محمد بن عبد الله؛ كلية الآداب والعلوم الإنسانية؛ ظهر المهراز؛ فاس. ج:1/ تمهيد.

إن حرص أبي العلاء على التمييز بين أفقي التجارب الإبداعية لديه الشعرية والنقدية، يضعنا أمام خطة استراتيجية القصد منها هو التنصيص على ضرورة بل إلزامية الوقوف عند التسمية لما لها من إيحاءات ترابطية تفاعلية مع مقصديته من الشعر، والذي يمثله ديوان "سقط الزند" دون الدواوين الأخرى التي تجسد تصور إبداعي آخر مختلف عما سبقه. كما أنه حرص لا يدع مجالا للشك على وعي أبي العلاء بأهمية الترابط النصي الذي اختار أن تكون المقدمات الجسر التواصلي بين الإبداع الشعري في السقط والإبداع النقدي في الدواوين الأخرى، والعنوان من بين الروابط الأساسية التي ترسم مفهوم حد الشعر لدى أبي العلاء المعري. ونؤكد على أن مقصدية أبي العلاء من الشعر هي إبراز القدرة على الإبداع في الشعر في عصر اعتبر فيه من أشرف مراتب البلغاء المتكاملي العلوم والمعارف في عصره، ومن أبرز فرسان فحول الشعر. يقول: "وقد كنت في ريان الحداثة وجن النشاط مائلا في صغو القريض، أعتده بعض مآثر الأديب ومن أشرف مراتب البليغ"[10]

إن العنوان من بين أهم الروابط التي وضعها أبو العلاء المعري للدلالة على أن هذا الديوان الذي يحمل هذا الاسم بالذات، هو أجود الأشعار من بين دواوينه المعددة، وذلك لعدة أسباب من بينها أنه يجسد فترة الصبا والشباب، زمن كان يعتد فيه بقول الشعر باعتباره من أشرف مراتب البليغ، ودلالة الوضع في التقديم ترمز إلى عمق بلاغة الشاعر وشمولية المعارف لديه، فصيغ: مثل قول الشعر، والاعتداد به، وشرف البليغ، كلها روابط نصية ذات حمولة دلالية تجسد في مجموعها حركية تفاعل العلوم والمعارف لديه وجمالية الإبداع الشعري في عصر اعتبر فيه الشاعر البليغ ملكا من ملوك الشعر.

اما هذه الاستراتيجية الإبداعية، وجد أبو العلاء أنه على القارئ ان يكون في مستوى الشرط الثقافي من حيث نفي الخطية المعهودة في الشعر، ونفي السببية وبالتالي ترابطية الدماغ، وذلك حتى يتم التواصل الفعال بين المقاصد وهو المبتغى من العملية التواصلية ككل. يقول الدكتور محمد الدناي في هذا السياق: "إن تسمية الديوان باسم يميزه عن باقي أسماء الدواوين العلائية الأخرى عمل توثيقي يشير إلى ضرورة التمييز بين فنية السقط ونظمية الدواوين الأخرى، كما تظل تسمية سقط الزند دون ما سوى ذلك من الأسماء إشارة نقدية مقصودة إلى خصائص فنية توافرت في أشعاره دون غيره من دواوينه"[11].

لقد اهتم أبو العلاء كثيرا بوضع الروابط والمعينات على مقصديته من الشعر، وجعل من العنوان جسرا للتواصل التفاعلي بينه وبين القارئ، ورأفته بالمتلقي: "من أن يخلط عند قراءته الديوان بين حاضر أبي العلاء وماضيه، فيحاسب المفكر التائب على رذيلة الشاعر المجود الكاذب، أو يحاكم الشاعر بمقاييس المفكر الصادق، ولكنهما لم يلتقيا في زمن واحد، لأن زمن الشعر لدى الشيخ كان غير زمن الفكر"[12].

واضح –إذن– أن هاجس حرص أبي العلاء على جودة شعر ديوانه المعنون ب"سقط الزند" وشاعريته التي ضاهى بها كبار الشعراء قديما وحديثا، بما فيهم غير المنصفين له، ورأفته بالقارئ من أن يخلط بين هذا الديوان ودواوينه الأخرى من جهة ثانية، جعله يستثمر في أهم رابط نصي وهو العنوان لتثبيت هذه الحدود، بل وإلزامها والإشارة إلى أن أشعار السقط تختلف عما سواها من الدواوين،

[10] – أبو العلاء المعري، سقط الزند، شروح سقط الزند، مصدر سابق، خطبة سقط الزند، 10/1.

[11] – محمد الدناي، نظرية الشعر لدى أبي العلاء المعري بين التصور والإنجاز، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه الدولة في اللغة العربية وآدابها، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، ظهر المهراز فاس المغرب/ 1999–2000، (صادر في كتاب) القسم الثاني، 98.

[12] – محمد الدناي، نظرية الشعر لدى أبي العلاء المعري بين التصور والإنجاز، مرجع سابق، ص: 100.

لهذا كان حرصه شديدا في جل إبداعاته الشعرية والنقدية على إشراك القارئ باعتباره الطرف الرئيسي في العملية الإبداعية التواصلية، وذلك من أجل أن يخوض حلاوة التجربة الشعرية إنتاجا وتلقيا ويشعر بحلاوة تجربة التكامل المعرفي والأخلاقي مع. "ولم أطرق مسامع الرؤساء بالنشيد، ولا مدحت طالبا للثواب"، وإنما كان ذلك على معنى الرياضة وامتحان السوس"[13].

أما **مقدمة السقط** فلا تقل أهمية عن أنواع المقدمات والروابط الأخرى التي استغلها أبو العلاء في استدراج القارئ إلى استيعاب النقلة النوعية التي عملت على تغيير مساره الفكري من شاعر مبدع إلى عالم مفكر، جاعلا من الخطبة جسرا يربط بينه وبين الفهم السليم لمقصديته لدى المتلقي، وذلك رغبة في مشاركته له متعة تجربة تحوله من غفلة سحر الشعر (الكاذب) إلى وعي سحر الفكر الصادق، يعني من لحظة اتخاذ قرار العزلة والعزم على عدم العودة إلى قول الشعر، أي إلى لحظة إقلاع نشاطه الفكري نحو مسار آخر سوى الشعر وحلاوة الشعر وعذوبة الشعر إلى القول الصادق والعلم النافع، هكذا نجد أنه كان ينصح تلامذته بالانكباب على دراسة ديوان "لزوم ما لا يلزم" إذا أرادوا العلم، وهي الصحوة الفكرية التي تزامنت مع لزومه مسكنه. يتضح هذا المعنى من خلال الرابط النصي التالي: "ولزمت مسكني منذ سنة أربعمائة، معملا أني لا أرسل فيما يتصل بكلام العرب بنت شفة"[14].

لقد جسد أبو العلاء المعري الشاعر والناقد والفيلسوف والمفكر من خلال كتاباتهم الترابطية مفهوم العتبات النصية وكذلك مفهوم الترابط النصي بصورة واضحة والذي من بين أهم أسسه هو نفي الخطية، مع عدم الإشارة إلى المصطلح لاشتغالهم بأمور أخرى، لكن الاستثناء هو أن أبا العلاء يضع المصنف ويملأه بالروابط والمعينات على الفهم، يربط بينه وبين العنوان باعتباره رابطا يؤكد مقصديته وترابطه به ومعه، وقد يقوم بتعزيز الرابط برابط آخر في نفس السياق. وذلك بواسطة الشرح ويضع له عنوانا آخر مؤكدا على الترابط والتواصل الفعال على أهم مقصديته، وسيداوم اتصاله بأشعار السقط على وجه الخصوص عبر روابط كثيرة مثل الشرح والنقد حتى آخر عهده بالتأليف كما نجد في "ضوء السقط"، فلم يكن؛ إذن؛ اختيار أبي العلاء لعناوين مصنفاته واعتبارها بمثابة روابط عبثا حتى تجمع مع دواوين أخرى على غرار ما نجده في النسخة الحالية لـ"سقط الزند" الذي جمع خطأ مع ديوان "الدرعيات" وحقه ان يكون مستقلا[15]

أما **خطبة السقط**، وهي الرابط الثالث بعد روابط مثل "العنوان" و"المقدمة"، فلقد اعتنى بها أبو العلاء كثيرا، لهذا افتتحها بسرد قصته مع الشعر وافتتانه به أيام الصبا والشباب حتى استطاع مبارزة فرسانه. يقول: "أما بعد، فإن الشعراء كأفراس تتابعن في مدى، ما قصر منها سبق، وما وقف ليم ولحق"[16].

والطريف أنه على الرغم من نزع الاعتراف بشاعرية الشاعر وجودة شعرية السقط إلا أن أبا العلاء المعري سيقلب الموازين بوضع روابط نصية تعارض المدلول الأول من حيث الاعتداد بالشعر، بروابط تدل على الرفض والحسرة على قول هذا الشعر في زمن ما بعد الصبا إلى درجة الندم على قوله لان الشعر الجيد يتطلب الكذب لأن أجود الشعر أكذبه. يقول: "(...) ثم رفضته رفض السقب غرسه، والرأل تريكته، رغبة عن أدب معظم جيده كذب، ورديئه ينقص ويجذب"[17].

---

[13] - أبو العلاء المعري، سقط الزند، شروح سقط الزند، مصدر سابق، المقدمة 10/1.

[14] – أبو العلاء المعري، سقط الزند، شروح سقط الزند، مصدر سابق، المقدمة 5/1.

[15] - محمد الدناي، نظرية الشعر لدى أبي العلاء المعري بين التصور والإنجاز، مرجع سابق.

[16] _ أبو العلاء المعري ، سقط الزند، شروح سقط الزند، مصدر سابق، 1/10.

[17] _ أبو العلاء المعري ، سقط الزند، شروح سقط الزند، مصدر سابق، خطبة سقط الزند، 1/10.

من أراد أن يتقصى أنواع الروابط بين النصوص العلائية لفهم استراتيجية عمله الفني، عليه أن يتقصى طريقته في التأليف وأن ينتبه لأفقي تجربته الإبداعية، أفق التجربة المتجه نحو ماضيه الشعري المتعالي في الجودة الشعرية وقوة شاعريته، وأفق التجربة الفكرية المتجه نحو المستقبل المتعالي أيضا بنشاط فكري آخر سوى الشعر، وقد كان ذلك زمن اتخاذ قرار العزلة والتفرغ للعلم والمعرفة. وقد كان من شأن هذه المعادلة الثلاثية الأبعاد أن تحدث نوعا من الضبابية في ذهن القارئ ودعوته بتصويب انتباهه مرة نحو ماضي الشاعر لما كان مقبلا على الحياة، ومرة نحو حاضر الشاعر زمن اتخاذ قرار العزلة ولزوم مسكنه، وتارة أخرى نحو مستقبل الشاعر لحظة تحول نشاطه الفكري من الشعر إلى ما سواه. معادلة صعبة بالنسبة لقارئ ليس في مستوى الشرط الثقافي للمبدع.

أبو العلاء المعري، على العهد به، هو الذي يوضح معينات فهم مقصديته من الإبداع الشعري، لهذا وهو في غمار خوض التجربة التي عملت على تحويل فكره من الشعر المتعالي في الجودة إلى الفكر الصادق حيث تحول نشاطه الفكري غير الشعر، لم يكن يغفل الاضطراب النفسي الذي يحدثه هذا التحول لدى القارئ، وقد عبر عن هذا مرة بإعلان الحسرة والندم على ما بدر منه من غلو في المدح والافتخار بالنفس، ومرة أخرى بالاعتذار منه، ومرات عديدة بالاستغفار وإعلان التوبة من قول الشعر واتخاذ قرار عدم العودة إلى الشعر مرة أخرى.

يترجم لنا التبريزي في إحدى الروابط النصية التي تجسدها مقدمته للسقط، أثر هذا التحول الفكري في نفسية أبي العلاء والمتلقي على حد سواء فيقول: "وبعد، فإني لما حضرت أبا العلاء أحمد بن سليمان التنوخي المعري، رحمه الله، قرأت عليه كتبا كثيرة من كتب اللغة، وشيئا من تصانيفه، فرأيته يكره أن يقرأ عليه شعره في صباه، الملقب ب"سقط الزند". وكان يغير الكلمة إذا قرأت عليه شعره، ويقول معتذرا من تأبيه وامتناعه من سماع هذا الديوان: "مدحت فيه نفسي، فأنا اكره سماعه" . وكان يحثني على الاشتغال بغيره من كتبه، كلزوم ما لا يلزم، وجامع الأوزان، والسجع السلطاني، وغير ذلك(...)"[18].

والجذير بالذكر أن حسرة أبي العلاء وندمه على قول الشعر وعدوله عنه، لم يكن بسبب الشعر باعتباره شعرا، بل بسبب الغلو الذي يرتبط بالجودة الفنية في الشعر، وإلا فمرحلة الصبا وشعر السقط من أجمل المراحل العمرية بالنسبة له، وشعر السقط أجود أنواع الشعر من بين دواوينه وهو فارس من فرسان الشعر دائما، فالقول بفتور أبي العلاء عن قول الشعر في مرحلة ما بعد الصبا لا يعني نفي الشاعرية عنه والشعرية عن شعره، ولكن المقصود بالأساس هو تنصيصه على أن شعرية الشعر يجسدها ديوانه المسمى ب"سقط الزند" وحده دون دواوينه الأخرى، وأنه شاعر بمثابة فارس في الديوان السقطي بلا منازع، لهذا لم يكن بد من أن تظل تسمية الديوان بسقط الزند هي أفضل الاختيارات الإبداعية الشعرية لديه[19].

ولتجديد العهد بالقارئ، يجدد أبو العلاء في آخر الخطبة اعتذاره إليه عن فترة زمنية من عمره اغتر فيها بقول الشعر واعتبره بعض مآثر الأديب، فسلك في سبيل ذلك مسلك الغلو والكذب والمبالغة لمبارزة فرسان وفحول الشعر فحقق هدفه محافظا على ماء وجهه من التكسب، والآن وقد ولى عهد الصبا، فقد تغيرت رؤيته للحياة وبالتالي تغيرت نظريته الشعرية، ولم يعد مفعول سحر الشعر

[18] – أبو العلاء المعري، سقط الزند، شروح سقط الزند، مصدر سابق، مقدمة التبريزي، 3/1.

[19] - محمد الدناي، نظرية الشعر لدى أبي العلاء المعري بين التصور والإنجاز، مرجع سابق.

يؤثر فيه، فأعرض عنه وتاب واستغفر. يقول معتذرا متحسرا نادما تائبا: "وما وجد لي من غلو علق في الظاهر بآدمي، وكان مما يحتمله صفات الله تعالى، فهو مصروف إليه، (...) وما كان محضا من المين لا جهة له فأستقيل الله سبحانه وتعالى العثرة فيه (...)"[20].

لقد كان أبو العلاء في رهافة حسه يعلم ردة فعل القراء إزاء حيثيات اشتغال نشاطه الفكري على هذه الكيفية، لهذا صوب تركيزه على كثرة وضع الروابط النصية، وذلك من خلال الروابط التي استند إليها ولعبت دورا أساسيا في بناء النص ووضع عقده وبالتالي مفاتحه ليسهل فهمه على المتلقي.

لقد صوبت مقصدية الروابط في الكتابة الترابطية لأبي العلاء المعري نحو هدفين رئيسيين: أولهما: اعتداده بشعرية السقط وحده دون غيره من الدواوين، ثانيهما: حرصه على العلاقة التفاعلية مع القارئ وفهمه السليم لحيثيات اشتغال النص الإبداعي الشعري لديه، واستدراجه بالتالي إلى مشاركته له متعة مخاض التحول من الإبداع في الشعر أيام الصبا والشباب إلى الإبداع في العلوم والمعارف قديمها وحديثها مستقبلها في جميع مجالات الثقافة العربية محورها المركزي اللغة العربية.

وبناء عليه، فروابط مثل العنوان والمقدمة والخطبة هي بمثابة وثائق بالغة الأهمية من حيث دلالاتها الأدبية النقدية وشهادتها على مهامها التوصيلية التفاعلية، وقد حرص أبو العلاء على جعلها روابط أدبية نقدية تنسجم بين حروفها تناغم الشعر والتحولات الفكرية لديه، إلا أنه رغم هذا الاعتبار العلمي والاعتراف بقوة الشاعرية التي انتزعها من القدماء والمحدثين مشارقة قديما وأندلسيين جدد[21]، نجد الخطبة تعج بروابط نصية من حيث هي شرط إجرائي وقيد منهجي وضابط معرفي للمفاهيم والمضامين الشعرية لديه، وهو الرياضة وامتحان السوس والشهرة ومبارزة فرسان الشعر ولكن دون مقايضة، وهذه من بين أهم المقاصد الترابطية لأبي العلاء المعري، وهي أن شعره بلغ عنان السماء رغم الخطية في المقايضة بالشعر في عهد سنت فيه قواعد وشروط نجاح المدحة قبل عصر أبي العلاء المعري وبعده. يقول: "ولم أطرق مسامع الرؤساء بالنشيد ولا مدحت طالبا للثواب، وإنما كان ذلك على معنى الرياضة وامتحان السوس"[22].

قد تبدو المعادلة صعبة في الوعي الجمعي العام لدى الشعراء والنقاد الذين سنوا قواعد نجاح المدحة التكسبية، وتستثنى منها مدائح السقط، غير أن أبا العلاء سن للمديح وجهة أخرى وهي العفة والعفاف وعدم بذل ماء الوجه بالاستجداء، ولتأكيد هذا البعد الرابط الاستثنائي في مدائح السقط، خص له أبو العلاء مكانا نافيا خطية الاستجداء بالعلم أي الشاعر باعتباره شرطا إلزاميا لفهم مقصدية اشتغال مدائحه في الديوان وهو أنه لم يمدح طلبا للأجر المادي ولكن كان امتحانا للسوس وللمبارزة والوصول إلى مرتبة فرسان وفحول الشعر وقد وصل.

وعن مصدر رزقه يضع أبو العلاء رابطا من أهم الروابط التي تدل على مصدر عيشه وهي القناعة باعتبارها مورد عيش كريم وماء وجه محفوظ لم يبتذل بالسؤال. يقول: "فالحمد لله، ستر بغفة من قوام العيش، ورزق شعبة من القناعة أوفت بي على جزيل

[20] – أبو العلاء المعري، سقط الزند، شروح سقط الزند، مصدر سابق، الخطبة، 10/1.
[21] - شروح أندلسية غير معروفة لـ"سقط الزند" مرجع سابق.
[22] – أبو العلاء المعري، سقط الزند، شروح سقط الزند، مصدر سابق، الخطبة، 10/1.

الوفر"[23]. وأشعار السقط عموما مليئة بهذه الدلالات التي يعلن فيها أبو العلاء ويؤكد عدم مدحه لسلطان ولا حاكم ولا أمير طلبا للثواب، وإنما كان ذلك رياضة للقول وامتحانا للسوس ومبارزة فرسان الشعر.

يعتبر العنوان والمقدمة والخطبة في ديوان "سقط الزند" من أهم الروابط النصية المعينة على فهم مقاصد الشاعر، فكلاها مرتبط ببعض ويتفاعل مع بعض، وقد كان ذلك تمهيدا للفهم السليم للمتن الشعري بقوة قصدية وظيفية، وصارت مرتبطة وملازمة له ومشروطة به لمن أراد أن يتقصى شعرية السقط وقوة شاعرية الشاعر، ناهيك عن الروابط النصية الأخرى التي تؤكد عفته وحفاظه على ماء وجهه من ذل المقايضة بالشعر.

وتحريا للتدقيق، فمنذ اللحظة الأولى لوضع ديوان "سقط الزند" بدأ أبو العلاء في وضع معينات مقصديته من الشعر، وليس في زمن الخطبة بالذات كما يبدو، فوعيه بتحول نشاطه الفكري من الشعر إلى ما سواه، لم يكن وليد اللحظة، بل يعود إلى مرحلة السقط، أما زمن وضع الخطبة فيمكن القول إنها فرصة سنحت له بإعادة ربط اتصاله بالقارئ مرة أخرى لتوطيد العلاقة بينهما أكثر وذلك رغبة في خلق أقصى درجة من التفاعل والتواصل المبتغى من العملية التواصلية ككل.

كل الروابط النصية التي مرت بنا وبمختلف عناصرها وأنواعها، جعلت المتلقي طرفا محوريا ضمن التداول الإبداعي للتكامل المعرفي الشعري لدى أبي العلاء، فهل كان القراء في مستوى الشرط الثقافي للإبداع الشعري العلائي؟

إلى جانب مقصدية الشاعر من إبداعه الشعري، وجدت مقصدية القراء في المشرق وفي الأندلس تلقائيا، وقد أفضى تعدد القراءات إلى تعدد الوظائف بالطبع، ويمثل ابن السيد البطليوسي **(ت521)** أكثر أنواع التلقي مغالطة عرفها التراث الشعري العلائي في التاريخ.

يحضر "الاغتراب" في مقصدية ابن السيد البطليوسي الأندلسي من شرح ديوان "سقط الزند" لتصرفه في دواوين أبي العلاء المعري ومحاولة جمعها في ديوان واحد، وهذا على خلاف مفهوم الشعر لدى أبي العلاء على غرار تعريفه للشعر في النص السالف الذكر.

لم يعر الشارح الاندلسي ابن السيد البطليوسي الروابط النصية التي وضعها أبو العلاء المعري، ولم يعرها اهتماما إلا وهو داخل المتن الشعري يصول ويجول دون عدة علمية أو معرفية تقترب من المستوى التكاملي المعرفي والترابطات النصية التفاعلية التواصلية. يذكرنا هذا بأنواع القراء غزاء التراث الثقافي الذي تفصل بينه وبين النص أزمنة كثيرة، فكيف والحال أن الشارح الأندلسي لديوان "سقط الزند" عاش في نفس الفترة الزمنية لأبي العلاء. فهل نجد هذا النوع من القراء في نص الدكتور عبدالفتاح كيليطو الذين لا يتوفرون على الشرط الثقافي للتأهيل لقراءة النص الكلاسيكي: "(...) ما أكثر القراء الذين لا يبصرون العتبة فيتجولون في الماضي كما يتجولون في الحاضر، وما أكثر القراء الذين يقفون عند العتبة ولا يجرؤون (أو لا يبالون) باجتيازها، وما أكثر القراء الذين يقدمون رجلا ويؤخرون أخرى على أي حال، كلنا يعلم أن تحديد المستقبل مرهون بتحديد الماضي وتحديد الماضي مرهون بتحديد الغرابة"[24].

شرح ابن السيد البطليوسي(ت **521هـ**) ديوان "سقط الزند" وظلت نسخته الأندلسية النسخة الفريدة لشعر السقط في الأندلس لقرون طويلة، للأسف، وذلك إلى غاية القرن الواحد والعشرين حينما صدر كتاب "شروح أندلسية غير معروفة لـ "سقط الزند" عام **2011م** للمحقق محمد بنشريفة، والذي نسخ منهجية ابن السيد البطليوسي في السقط ودحض ادعاءاته ونسف مغالطاته للتراث الشعري العلائي.

---

[23] – أبو العلاء المعري، سقط الزند، شروح سقط الزند، مصدر سابق، الخطبة، 10/1.

[24] _ عبد الفتاح كيليطو، الأدب والغرابة، دراسات بنيوية في الأدب العربي. ص: 12.

استهل ابن السيد البطليوسي خطابه المقدماتي بالتعريف بالمقدم له وهو هنا أبو العلاء المعري، يقول بنبرة محملة بالتعالي:" سألتني... أن أشرح لك سقط الزند من شعر أبي العلاء المعروف بالمعري (...) ولعمري إنه لشعر قوي المباني، خفي المعاني، لأن قائله سلك به غير مسلك الشعراء، وضمنه نكتا من النحل والآراء، وأراد أن يرى معرفته بالأخبار والأنساب، وتصرفه في جميع أنواع الآداب، فأكثر فيه من الغريب والبديع، ومزج المطبوع بالمصنوع، فتعقدت ألفاظه، وبعدت أغراضه(...)" [25].

إن جملة "سألتني" في الخطاب أعلاه، رغم دورانها في تقديم القدامى، إلا أن ورودها في السياق السالف الذكر يترجم فتور العلاقة بين المقدم والمقدم له، فلم يكن صاحب ديوان "سقط الزند" بالنسبة لابن السيد البطليوسي سوى: "أبو العلاء المعروف بالمعري"، مع أن شهرة أبي العلاء المعري وصلت إلى الضفة الغربية في حياة أبي العلاء، وأبو العلاء في الضفة المشرقية أشهر من علم كما في الضفة الغربية لانضوائهما تحت راية الإسلام، فالشاعر في تقدير تلميذه التبريزي مثلا : " أبو العلاء أحمد بن سليمان التنوخي المعري، رحمه الله، قرأت عليه..."[26] وفي تقدير الخوارزمي هو: "السلف الفاضل أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان المعري، رحمه الله (...)"[27]، بل وفي جل المصادر والمراجع التي أرخت لأبي العلاء قديما وحديثا هو أبو العلاء السلف الفاضل العالم المفكر الشاعر الفيلسوف، ويختم الكلام عنه بالدعاء له بالرحمة إلى غير ذلك من أدبيات التقديم، فذكر الاسم كاملا، وتوصيف الشاعر بالفاضل، والافتخار بالقراءة عليه، والدعاء له بالرحمة، كلها روابط نصية تبرز مكانة أبي العلاء المعري لدى المقدمين له أو لدى القراء عموما. على غير عهد المقدمين للضيف على غرار عصرنا هذا.

تزداد نبرة غضب المقدم على المقدم له حينما يخرج أبا العلاء المعري من دائرة الشعراء وينفي عنه الشاعرية، وعن شعره الشعرية. يقول: "سألتني (...) أن أشرح لك "سقط الزند" من شعر أبي العلاء المعروف بالمعري (...) ولعمري إنه لشعر قوي المباني، خفي المعاني، لأن **قائله سلك به غير مسلك الشعراء**، وضمنه نكتا من النحل والآراء، وأراد أن يرى معرفته بالأخبار والأنساب، وتصرفه في جميع أنواع الآداب، فأكثر فيه من الغريب والبديع، ومزج المطبوع بالمصنوع، فتعقدت ألفاظه، وبعدت أغراضه(...)"[28].

لقد جمع ابن السيد البطليوسي بين أشعار سقط الزند" ونظم دواوين أبي العلاء الأخرى، فأضاف أوزانا وقوافي من "اللزوميات" و"الدرعيات" إلى أشعار السقط، بمعنى آخر فقد عمل في دراسته على إعادة ترتيب الدواوين العلائية المتعددة والمختلفة التصورات والعناوين وفقا لحروف المعجم، وهذا على خلاف التصور العلائي لدواوينه وعلى خلاف الأمانة العلمية في الدراسة والتحليل والتقديم. يقول ابن السيد البطليوسي: "ورأيت أن ترتيبه على حروف المعجم أتم في الوضع وأجمل للتصنيف، فاحتجت لذلك أن أزيد فيه ما يفي بالغرض"[29]. والغريب أن الشارح ابن السيد البطليوسي عاش في نفس عصر أبي العلاء **(ت521هـ)**، واختلاف المكان الجغرافي بين الضفة الغربية والمشرقية لا يغير في أمانة وصدق القارئ عموما، خصوصا وأن تراث أبي العلاء وصل إلى الأندلس في حياة أبي العلاء كما يشير إلى ذلك المحقق محمد بنشريفة.

[25] – أبو العلاء المعري، سقط الزند، شروح سقط الزند، مصدر سابق، مقدمة البطليوسي لشرح السقط، 15/1.

[26] – أبو العلاء المعري، سقط الزند، شروح سقط الزند، مصدر سابق، مقدمة التبريزي لشرح سقط الزند، 3/1.

[27] – أبو العلاء المعري، سقط الزند، شروح سقط الزند، مصدر سابق، مقدمة الخوارزمي لشرح سقط الزند، 17/1.

[28] – أبو العلاء المعري، سقط الزند، شروح سقط الزند، مصدر سابق، مقدمة البطليوسي لشرح السقط، 15/1.

[29] _ أبو العلاء المعري، شروح سقط الزند، مصدر سابق، مقدمة البطليوسي.

لم ينتبه ابن السيد البطليوسي إلى أهمية الروابط والعتبات النصية التي وضعها أبو العلاء المعري حرصا لفهم أبعاده المعرفية والخلقية من العلوم والمعارف، هنا نفهم جيدا لم تنص المقاربات النصية إلى اشتراط المستوى الثقافي في عملية القراءة. ويمكن القول إن استشهاد ابن السيد البطليوسي بخطبة السقط التي كان قد تجاوزها في خطابه السابق، ردته إليها مضطرا ولو بعد حين، فشهدت ضده وأعلنت عدم أمانته العلمية وبالتالي تضييعه لأمانة الفكر والكلمة، كما سبق وأن اتهم بالسرقة لكتاب الاقتضاب كما يقول بنشريفة.

جميع التراجم القديمة والحديثة بما فيها غير المنصفة لأبي العلاء المعري، تجمع على شاعرية أبي العلاء وشعرية ديوان "سقط الزند"، فالشراح المشارقة بجميع أصناف تخصصاتهم وكذلك الشراح الأندلسيين الجدد يجمعون على التنويه بفنية السقط وشاعرية الشاعر ومنهج شعره البدوي الحضري السائر على طريقة أبي تمام وأبي الطيب المتنبي في الشعر. يقول التبريزي منوها بجودة السقط الفنية: "وشعره كثير في كل فن، وميل الناس على طبقاتهم: من شاعر مفلق، وكاتب بليغ، إلى هذا الفن أكثر، ورغبتهم فيه أصدق، وهو أشبه بشعر أهل زمانه مما سواه، لأنه سلك فيه طريقة حي بن أوس الطائي وأبي الطيب المتنبي، وهما هما في جزالة اللفظ وحسن المعنى"[30]، وكذلك ينوه الخوارزمي بدوره بفنية السقط وجودته فيقول: "وهذا الديوان أول شعر لفظه طبعه في غرة عمره، وهو قليل متكلف بالإضافة إلى بقية شعره"[31].

ويضيف مشككا في عفة الشاعر: "وهذا الشعر مخالف لقوله في خطبة سقط الزند، ولم أطرق مسامع الرؤساء بالنشيد ولا مدحت طالبا للثواب"[32]، هذا الخطاب المعضلة الذي أصاب التراث العلائي في الأندلس وأصاب مقتل أبي العلاء في شاعريته وفي شعره لقرون عديدة على غاية ظهور كتاب "شروح أندلسية جديدة لـ "سقط الزند" للدكتور محمد بنشريفة رحمه الله.

تجمع المصادر والمراجع القديمة والدراسات الحديثة لأبي العلاء إلى عدم تكسب أبي العلاء بمدائحه رغم الشهرة التي جابتها في الشرق وفي الغرب، في القديم وفي الحديث، ولو أراد أبو العلاء لأكل في أطباق الذهب والفضة، ولسار في مواكب الملوك مع جميع خلفاء وأمراء وحكام عهده، غير أنه آثر القناعة عفيفا محافظا على ماء وجهه من السؤال وعلى عفة نفسه من المقايضة بشعره.

والمعضلة الأكثر خطورة هي أن ابن السيد البطليوسي لم يكن هو الشارح الحقيقي لديوان "سقط الزند"، إذ اعدى في "الانتصار" المشكوك في انتسابه له. أنه روى عن أبي العلاء وهذه مغالطة. يقول المحقق محمد بنشريفة رحمه الله: "(...) وقد ورد في الانتصار لأبي محمد بن السيد وكذلك في الاقتضاب له ما يوهم أنه روى سقط الزند مباشرة عن عبد الدائم، قال في الانتصار: رويناه عن شيخنا أبي الفضل البغدادي وعبد الدائم القيرواني (...) ويبدو أن هذه الرواية إنما هي بواسطة، ونجد مثل هذا التجاوز عنده (...) قال: ورويناه عن أبي العلاء (...) فروايته عن أبي العلاء إنما هي بواسطة، ويجب التنبيه هنا إلى أن ابن السيد الذي يذكر في هذه النسخة هو أبو الحسن" [33].

---

[30] – أبو العلاء المعري، سقط الزند، شروح سقط الزند، مصدر سابق، مقدمة التبريزي لشرح سقط الزند، 4/1.

[31] – أبو العلاء المعري، سقط الزند، شروح سقط الزند، مصدر سابق، مقدمة الخوارزمي لشرح سقط الزند، 18/1.

[32] – أبو العلاء المعري، سقط الزند، شروح سقط الزند، مصدر سابق، الخطبة10/1.

[33] _ الدكتور محمد بنشريفة، مرجع سابق، ص: 17-18

ولصون ذاكرة هذا الجزء من التراث في الغرب الإسلامي، ولإبراز أسباب هذه القراءة النشاز في جبين التراث العلائي الشعري في الأندلس على وجه الخصوص، يقف المحقق محمد بنشريفة، باعتباره الأقدر على استكشاف سيرة وتآليف الأعلام والأدق في دراستها وتحليلها، محققا في هذه القضية ليملأ فراغا مهولا في التراث العربي وفي تراث أبي العلاء المعري في الأندلس خاصة، وهو أن ابن السيد البطليوسي ليس الشارح الحقيقي للسقط بل أخوه الأكبر المسمى في النسخة الأندلسية الجديدة بأبي الحسن علي بن محمد بن السيد البطليوسي المعروف بالخيطال (ت **480هـ**) فعنه أخذ ابن السيد البطليوسي شرح السقط وتصرف فيه دون الإحالة عليه. يقول الدكتور محمد بنشريفة مستنكرا هذا الفعل:" **(...)** والذي أفهمه أن ذلك من أخذ التلميذ عن الشيخ، وما أريد هنا أن أتهم أبا محمد بسرقة شرح أخيه شيخه أبي الحسن مع التصرف في عبارته والزيادة عليها كما اتهم في تأليفه كتاب الاقتضاب وقيل ليس له، ولكني أستغرب منه عدم ذكر أخيه الذي أخذ عنه كثيرا من كتب الأدب وغيرها ومنها سقط الزند وشرحه الذي اعتمد عليه وتصرف فيه، وهو شيء يعرف لأول مرة"[34].

لهذا يدعو الدكتور محمد بنشريفه في كثير من المواضع من الكتاب المحقق إلى تصحيح هذا الخطأ الذي مني به التراث عموما والعلائي في الأندلس خصوصا، ويشير إلى أن شارح السقط الحقيقي هو أبو الحسن بن السيد البطليوسي وهو الأخ الأكبر وأستاذ محمد ابن السيد البطليوسي الأخ الأصغر المشهور في النسخة المشرقية للسقط بان السيد البطليوسي. يقول داعيا إلى تصحيح الخطأ في النسخة المشرقية للسقط التي ركنت إلى فرادة شرح ابن السيد الأندلسي: " يشبه العمل القديم في شيء آخر هو أن كل واحد منهما يشتمل على ثلاثة شروح، لكن الشراح في نسختنا كلهم أندلسيون وهم: أبو القاسم عبد الدائم القيرواني نزيل الأندلس، وأبو عامر أحمد بن الفرج القونكي **وأبو الحسن بن السيد البطليوسي**، وثمة شراح آخرون لكن شروحهم قليلة "[35] وذلك حتى يثبت الاسم الحقيقي للشارح بدل ابن السيد البطليوسي المتهم بالتجاوز والمغالطة وطمس التراث.

فبالإضافة إلى الشارح الحقيقي للسقط المدعو الحسن علي محمد بن السيد البطليوسي لأندلسي الحقيقي أسفر الكتاب المحقق إلى إضافات كبيرة للشراح الأندلسيين الذي بلغ عددهم أحد عشر شارحا، وكلهم نسفوا ما جاء في سفر الشارح ابن السيد البطليوسي.

وهذا دليل على عناية الأندلسيين الفائقة بالتراث العلائي الشعري عناية المشارقة به، حيث قضوا ثلاثة قرون في خدمة سقط الزند وهي القرن الخامس والسادس والسابع الهجري، وهي نفس القرون التي قضاها الشراح المشارقة في خدمة الديوان.

إن التوجه في رحلة شرح السقط لابن السيد البطليوسي من خلال التقديم وتجازه لعتبات النص، غير المفاهيم النقدية التي قصدها أبو العلاء، وأحدث ضبابية في رسم الشخصية الشعرية العلائية التي، للأسف، امتد تأثيرها إلى العصر الحديث مع الدكتور طه حسين المشرف على اللجنة العلمية لتحقيق السقط، والذي بدوره سيضع الدواوين العلائية المتعددة الزوايا النقدية على منصة التداول النقدي الوضعي على أنها شعر واحد أجودها اللزوميات، وهذا على غير مراد أبي العلاء منها، وتعتبر أطروحة كتاب الدكتور محمد الدناي بمثابة انبعاث صوت آخر لأبي العلاء من وراء قرون عدة هدفها إعادة رسم الصورة الواضحة لأبي العلاء الشعرية التي لم تلتق بأبي العلاء النقدية التي طمس صورتها ابن السيد البطليوسي متعمدا مضيعا للأمانة العلمية، ووضعه الدكتور طه حسين بمنهجه التاريخي في نفس قفص دراسة ابن السيد البطليوسي السابقة، وأحكم الغلق حينما اعتبر اللزوميات أجود أشعار أبي العلاء وهي تجسد الزاوية الأساسية للتصور الشعري العلائي، بل ولد كان ينصح تلامذته بالانكباب عل دراسته دون السقط لانه مدح فيه نفسه. وإلا فأشعار السقط من أجود الدواوين وشاعرية لم يضاهيها أي من فرسان الشعر قديما وحديثا.

[34] _ الدكتور محمد بنشريفة، مرجع سابق، ص: 31.
[35] - الدكتور محمد بنشريفة، مرجع سابق، ص: 30.

قد تكون رياح الشائعات التي رمت أبا العلاء المعري في عقيدته مشرقا، سببا في بغي الافتراء على شعره وعلى شاعريته وأخلاقه في الأندلس، خصوصا وأن تراث أبي العلاء قد وصل إلى الأندلس في حياة أبي العلاء كما يشير إلى ذلك الدكتور محمد بنشريفة، وقد يكون وصول تراث أبي العلاء إلى الضفة الغربية معطرا برائحة التهم المشرقية التي سبق وأن مسته في عقيدته وقد مسته هذه المرة في شاعريته.

ويستدرجنا الخطاب عموما وخطاب المقدمات على الخصوص والمقاربات النصية الحديثة، والوثائق العلمية الجديدة المحققة للتراث، ونصاعة ميراث الأمة إلى طرح التساؤلات التالية:

**أولا:** ألم تكن اللجنة العلمية التي عملت على تحقيق ديوان سقط الزند لأبي العلاء، إشراف الدكتور طه حسين، على بينة في خطابها المقدماتي بهذه المعضلة العلمية وهي تنوه بعمل ابن السيد البطليوسي الذي جمع بين دواوين أبي العلاء وأعاد ترتيبها على حروف المعجم في قولها:"(...) ليس شرحه خاصا بسقط الزند بل ضم مؤلفه إليه طائفة أخرى من شعر أبي العلاء، بعضها من لزوم ما لا يلزم، وبعضها الآخر من سائر دواوين أبي العلاء، كما يصرح بذلك في كثير من مواضع الشرح، وقد انفرد البطليوسي من بين الشراح بترتيب سقط الزند على حروف المعجم (...) ويعد هذا الشرح أقوى الشروح وأوفاها وأكثرها استيعابا"[36].

**ثانيا:** ألم يحكم الدكتور طه حسين في كتابه "تجديد ذكرى أبي العلاء" إغلاق القفص على الشخصية العلائية وحاصرها في ديوان واحد[37]، ألم ينوه بشرح ابن السيد البطليوسي للسقط لجمعه بين حروف المعجم لجميع دواوين أبي العلاء المعري دون وضع في الاعتبار أن ما ستسفر عنه المناهج الجديدة وظهور مؤلفات أخرى لأبي العلاء قد يعمل على تغيير النتائج؟[38]

ألم تكن اللجنة العلمية المعنية بتحقيق التراث العلائي الشعري خاصة، على وعي وهي تعتمد على الموروث من الخطابات والقراءات بشأن حقيقة التراث العلائي في الأندلس دون تمحيص. وهي تقول مطمئنة: "(...) ويقول ابن خلكان: "وهو أجود من شرح أبي العلاء""[39]؟

**ثالثا:** ألم تكن اللجنة العلمية على وعي بسيرورة العلوم والمناهج وبما سيستجد منها وما سيظهر من وثائق علمية وآليات نصية تكنولوجية مترابطة ورقمية قد تسفر عن حقائق غير ما وثقته قاطعة أمره؟

**رابعا:** ألم يكن أبو العلاء المعري دليلا أمينا ليقوم بتقديم نفسه من خلال مؤلفاته مع أي مقاربة نصية؟.

مع مستجدات العصر من مناهج وظهور مؤلفات الأديب المفقود منها أكثر من الموجود، وظهور النص المترابط والترابط النصي والدعوة إلى التفاعل والتواصل مع النص قديمه وحديثه ذهابا وإيابا لتجديد الوعي بالترابط النصي. تقول الدكتورة عائشة عبدالرحمن رحمها

[36] _ أبو العلاء المعري، سقط الزند، شروح سقط الزند، مصدر سابق، تقديم.

[37] - ينظر كتاب: محمد الدناي، نظرية الشعر لدى أبي العلاء المعري بين التصور والإنجاز، مرجع سابق.

[38] - ينظر: نجية نشيط، في نقد الشعرية العلائية – بين ابن السيد البطليوسي وطه حسين. سلسلة دراسات. الطبعة الأولى، 2018، الناشر، مقاربات للنشر والصناعات الثقافية.

[39] _ أبو العلاء المعري، سقط الزند، شروح سقط الزند، مصدر سابق، تقديم.

الله: " آن الأوان ليبعث أبو العلاء فينا من وراء أكثر من ألف عام، يصحح فهمنا للقيم الأدبية ويضبط موازيننا لأقدار الذين يحملون رسالة الأدب وأمانة الفكر والكلمة"[40].

علوم ومعارف متكاملة أسفرت عن كثير من المؤلفات والإبداعات في كل مجالات المعرفة، ولم تأخذ لحد الن حظها من الدراسة والفهم، تقف شامخة شاهدة على ما أسفر عنه الدماغ العلائي وما احتوته ذاكرته من علوم ومعارف أسفرت عن إبداع شعري ونقدي وفلسفي لم يحدها إلا الموت الجسدي ليبقى حيا في ضمائر الأجيال. تقول الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ): "وبعد، فما أرتاب في ان "أبا العلاء" سيبقى حيا في ضمائر الأجيال الخالفة من بيننا. ولعله يشفع لنا عندهم – حين يراجعون تاريخنا الأدبي البائس – أن شرفنا بهذا الشاعر الفرد، وقدمناه إليهم شاهدا على مدى ما تطيق إنسانيتنا الكريمة الحرة، من بسالة المجاهدة وبطولة الاحتمال. وسلام على شاعري أبي العلاء..."[41].

## المصادر والمراجع:

المعري، أبو العلاء. (1986م/1306هـ) .سقط الزند، شروح سقط الزند (الطبعة الثالثة). الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر.

باشا، أحمد فؤاد. (1997م/1418هـ) .دراسات إسلامية في الفكر العلمي (الطبعة الأولى). دار الهداية للنشر والتوزيع.

يقطين، سعيد. (2012م/1433هـ) .السرد العربي: مفاهيم وتجليات (الطبعة الأولى). منشورات الاختلاف.

يقطين، سعيد .(2005) .من النص إلى النص المترابط: مدخل إلى جماليات الإبداع التفاعلي (الطبعة الأولى). المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء–الرباط، المغرب.

يقطين، سعيد .(2008) .النص المترابط ومستقبل الثقافة العربية: نحو كتابة عربية رقمية (الطبعة الأولى). المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب.

يقطين، سعيد .(2012) .السرديات والتحليل السردي: الشكل والدلالة (الطبعة الأولى). المركز الثقافي العربي.

)مكرّر – تم دمجه مع المرجع رقم 5 لأنهما نفس الكتاب والمواصفات(.

بلعابد، عبد الحق. (2008م/1429هـ) .عتبات جيرار جنيت (تقديم سعيد يقطين، الطبعة الأولى). منشورات الجزائر، الدار العربية للعلوم ناشرون.

عبد الرحمن، عائشة (بنت الشاطئ). (د.ت.) .مع أبي العلاء المعري في رحلة حياته .دار المعارف، كورنيش النيل.

كيليطو، عبد الفتاح .(2013) .الأدب والغرابة: دراسات بنيوية في الأدب العربي (الطبعة العاشرة). دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب.

كيليطو، عبد الفتاح .(1985) .الحكاية والتأويل: دراسات في السرد العربي .دار الطليعة للطباعة والنشر.

كيليطو، عبد الفتاح .(2012) .لن تتكلم لغتي (الطبعة الثانية). دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.

كيليطو، عبد الفتاح .(2023) .أتكلم جميع اللغات لكن بالعربية (ترجمة عبد السلام بنعبد العالي، الطبعة الثانية). منشورات المتوسط، ميلانو، إيطاليا.

بنعبد العالي، عبد السلام .(2022) .عبد الفتاح كيليطو أو عشق اللغتين (الطبعة الأولى). منشورات المتوسط، ميلانو، إيطاليا.

[40] - مع أبي العلاء في رحلة حياته، الدكتورة عائشة عبدالرحمن، (بنت الشاطئ)،دار المعارف- المغرب- 1972م. ص: 312.
[41] - مع أبي العلاء المعري في رحلة حياته، الدكتورة عائشة عبدالرحمن (بنت الشاطئ)، دار المعارف، 1972م، ص: 312.

بنشريفة، محمد. (2011م/1432هـ) .شروح أندلسية غير معروفة لـ"سقط الزند "(الطبعة الأولى). مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء.
الدناي، محمد .(1999–2000) .نظرية الشعر لدى أبي العلاء المعري بين التصور والإنجاز (أطروحة دكتوراه دولة في اللغة العربية وآدابها، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس). [نُشرت لاحقًا في كتاب].
نشيط، نجية .(2018) .في نقد الشعرية العلائية: بين ابن السيد البطليوسي وطه حسين (الطبعة الأولى). سلسلة دراسات، مقاربات للنشر والصناعات الثقافية.
نشيط، نجية. (2025م/1447هـ) .الإبداع العلائي وآليات التلقي .دار السلام، الرباط، المغرب.
نشيط، نجية .(2025) .أبو العلاء المعري بين التكامل المعرفي والتلقي الخطي .دار السلام، الرباط، المغرب.

نجية نشيط. شعرية سقط الزند بين التصور العلائي وتصور الشراح، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها، إشراف: الدكتور عبد المالك الشامي، جامعة سيدي محمد بن عبدالله، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهراز فاس، 1422هـ 2001م.

# "Al- 'Ala'i's Poetic Creativity and the Integrative Nature of Knowledge"

**Researcher:**

**Professor Najia Nachit**

**Abstract:**

Some terms occupy a special, almost ethereal position in scientific research and intellectual and cultural writings. They are frequently used with varying meanings and connotations, without a consensus on one specific definition. We have become accustomed to finding certain terms employed not only with different meanings but sometimes even with contradictory ones. Such is the case with what is called **"epistemic integration"** (or knowledge integration).

The term "epistemic integration" generally refers to a person who is encyclopedic in his or her knowledge and culture — someone who possesses familiarity with many fields of study, even if that familiarity stems from general culture rather than specialized expertise.

Epistemic integration also refers to a comprehensive scientific vision of existence achieved through the activation of the Islamic worldview in all fields of knowledge — whether religious, natural, social, or human sciences. It carries the same meaning attributed to the term when used to describe a polymath—a person with wide-ranging knowledge across multiple disciplines—whose aim is to build a civilizational project that benefits both society and humanity as a whole.